المحاضرة الثالثة

« هؤلاءهم اليهود فاعتبروا يا أولى الأبصار »

لفضيلة الشيخ : ابي بكر جابر الجزائرى
المدرس بكلية الشريعة بالجامعة

ألقيت ليلة الجمعة ٢٣ / ١ / ١٣٩٤هـ

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد :

فهذا موضوع دراسة وافية لأمة ملأت أحاديثُها أسماعَ الدنيا ، وغنّى بذكرِ أسلافها الوجود ، وفاخر بأمجاد أجدادها الكون زمناً غير قصير . طلعت على الدنيا طلوعَ الدراري المضيئة في آفاقها ، وأشرقت بها الحياة إشراقةَ الشمسِ في سمائها . تلك هي الأمة التي قال الله تعالى فيها : (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين .) ذلك يوم كانت لله فأضفى عليها من إفضاله ما تسامت به على العالمين ، وذلك يوم كانت بالله فمنحها من قُواه ماسادت به جميع العالمين . (وإذ قال موسى لقومه ياقوم أذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين .) هذا . . . ويوم أصبحت هذه الأمة لغير الله هبطت من علياء سماء كراماتها ، ونزلت من سامق مَجْدِ أثّلَه آباؤها وأجدادها فهبطت إلى أرض الحياة الهابطة آفاعيَ سامّة ، وحياتٍ ناهشة ، ثعابين تمتص الدماء وأراقط تشرَبُ الدِّمَاء ، نزلت إلى دُنْيا الناس ، شياطينَ وسواس . فضجَّ الكون لهول آثامها ، وأقشعرّ أديمُ الحياة لِعِظَمِ جرائمها فلعنتها الأرض الطاهرة ، وسخطتها السماء الصافية . جزاهم الله ببغيهم ، وما ظلمهم ولكن كانوا هم الظالمين .

ويوم لم تكن بالله وَهَنَ عَظْمُ قُواها ، وتقطّعت حبال العزم من يُمناها ويُسراها فسقطت بائسةً يائسةً تحوط بها المسكنةُ من كل جوانبها ، وتغشاها المذلّة من فوقها ومن تحتِ أرجلها ، ولا يزال ذلك حالَها مالم تمتدَّ إليها يدُ الإسلام فتنقذها ، وذلك بالإيمان به ، والدخول بصِدْق فيه : (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) . فحبل الله تعالى هو الإسلام ، وحبل الناس ما يُعقد لهم من ذمة ، وما يُعطونه من أمان . أمست تلك الأمة التي كانت تُناطح عزتُها الجوزاء ، وتُغطي مفاخرُ آبائها وأجدادها أديمَ الأرض والسماء .

المحاضرة الثالثة

« هؤلاءهم اليهود فاعتبروا يا أولى الأبصار »

لفضيلة الشيخ : ابي بكر جابر الجزائرى
المدرس بكلية الشريعة بالجامعة

ألقيت ليلة الجمعة ٢٣ / ١ / ١٣٩٤هـ

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد :

فهذا موضوع دراسة وافية لأمة ملأت أحاديثُها أسماعَ الدنيا ، وغنّى بذكرِ أسلافها الوجود ، وفاخر بأمجاد أجدادها الكون زمناً غير قصير . طلعت على الدنيا طلوعَ الدراري المضيئة في آفاقها ، وأشرقت بها الحياة إشراقةَ الشمسِ في سمائها . تلك هي الأمة التي قال الله تعالى فيها : (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين .) ذلك يوم كانت لله فأضفى عليها من إفضاله ما تسامت به على العالمين ، وذلك يوم كانت بالله فمنحها من قُواه ماسادت به جميع العالمين . (وإذ قال موسى لقومه ياقوم أذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين .) هذا . . . ويوم أصبحت هذه الأمة لغير الله هبطت من علياء سماء كراماتها ، ونزلت من سامق مَجْدِ أثّلَه آباؤها وأجدادها فهبطت إلى أرض الحياة الهابطة آفاعيَ سامّة ، وحياتٍ ناهشة ، ثعابين تمتص الدماء وأراقط تشرَبُ الدِّمَاء ، نزلت إلى دُنْيا الناس ، شياطينَ وسواس . فضجَّ الكون لهول آثامها ، وأقشعرّ أديمُ الحياة لِعِظَمِ جرائمها فلعنتها الأرض الطاهرة ، وسخطتها السماء الصافية . جزاهم الله ببغيهم ، وما ظلمهم ولكن كانوا هم الظالمين .

ويوم لم تكن بالله وَهَنَ عَظْمُ قُواها ، وتقطّعت حبال العزم من يُمناها ويُسراها فسقطت بائسةً يائسةً تحوط بها المسكنةُ من كل جوانبها ، وتغشاها المذلّة من فوقها ومن تحتِ أرجلها ، ولا يزال ذلك حالَها مالم تمتدَّ إليها يدُ الإسلام فتنقذها ، وذلك بالإيمان به ، والدخول بصِدْق فيه : (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) . فحبل الله تعالى هو الإسلام ، وحبل الناس ما يُعقد لهم من ذمة ، وما يُعطونه من أمان . أمست تلك الأمة التي كانت تُناطح عزتُها الجوزاء ، وتُغطي مفاخرُ آبائها وأجدادها أديمَ الأرض والسماء .

أمست أمةً مهينةً حقيرة ، وأضحتْ بعد صلاحها وهدايتها حرابَى في تلَوُّنِها ، وسوام أبرص في نفث سمومها ، وفيراناً في إشعال نيران الفتن وإيقادها ، وجرذاناً خسيسةً خبيثة في تخريب قواعد الحياة الفاضلة وتدميرها . وفي القرآن الكريم خبرُ العليم الحكيم : (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، ويسعون في الأرض فساداً ، والله لا يحب المفسدين). وصدق الله ، فإن تاريخ الحروب البشرية من لدن سقوط هذه الأمة لو استنطقناه لأجابنا بأن أصابع اليهود كانت وراء كل حرب منها تحُوكُ خيوطها وتجمع حَطَبَها ،وتُضرم نارها ، ولم نخطىء أبداً إذا ما قلنا : بأن حَرْبَ الأحزاب ضدَّ الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وهي أكبرُ حرب تألّب فيها الكفر يومَها على الإيمان ، والشركُ على التوحيد ، ولولا أن الله سلم لحلّت كارثةٌ بالمؤمنين ، وعاد ظلامُ ليلِ الحياةِ بعد طلوع فجرها . تلك الحرب كانت مِن صُنع اليهود وتخطيطهم ، كما أن فتنة عثمان رضي الله عنه كانت من تدبيرهم ، وأن فتناً كثيرةً عاشتها أمة الإسلام كانت من عمل أيديهم . كما أن الحروب العالمية الثلاث كانت بإجماع آراء الساسة العالميين بإيقاد اليهود لنيرانها وإعدادهم لإثارتها . هذا عن الحروب البشرية وما جرّت من ويلات وخراب على العالم أجمع . أمّا عن الإفساد والتخريب فكلمةُ الله الصادقة : (ويسعون في الأرض فساداً) بدلالة المضارع فيها المقتضية للتجدد والحدوث — كافيةٌ في الشهادة بأن اليهود لم يبرحوا يُخططون لتدمير العالم وتخريبه بقلب أوضاعه منذُ ليلِ وجودِهم منبوذين مذمومين مدحورين لفسقهم عن أوامر ربهم ، وتمرُّدِهم عن شرائعه . ويكفي في التدليل على ذلك أن نذكر أن الديانةَ المسيحيّة لم يُفسدْها فحوّلَها إلى ديانةٍ شركيّة ، وخرافةٍ عقليةٍ سوى اليهود . وأن الإنجيلَ كتابَ المسيحيّة المقدس اليهودُ هم الذين عبثوا به تحريفاً وتبديلاً حتى أصبح الإنجيل الواحد عدة اناجيل . وقد لا نخطىء ولا نفتات أيضاً إذا قلنا أن أصابع اليهود كانت وراء كثير من الطرق الصوفية الغالية ، ووراء كثير من المذاهب الإسلامية المنحرفة عن الخط الإسلامي الصحيح ، كالباطنية والحلولية ، وما تفرع عنهما من بهائية وقاديانية ونصيرية درزية ، واسماعيلية علوية ، وشيعية جعفرية أو إماميّة جافية . وهناك ما هو أعظم وأخطر وأسوأ كالمذهب الشيوعي المادي والمذهب الوجودي الإباحيّ ، والمذهب الماسوني المدمر ، والاشتراكي المخرّب ، كل هذه المذاهب الهدامة الحارقة المخربة المدمرة هي من وضع اليهود ، وبناتِ فكرهم ، وتخطيط أيديهم لتدمير العالم وتخريبه عقائدياً ، وأخلاقياً ، كل ذلك ليخلوا الجو للطائفة اليهودية أن تبرز قوةً روحية صالحة —

في نظرهم – لسيادة العالم وتسخيره لخدمة يهود هم شعب الله المختار كما يأفكون . وابروتكولات صهيون شاهدة بذلك فلنطّلع عليها . هذا وإن أعددنا هذه الكلمات العابرة عن اليهود تاريخاً وسلوكا . إن أعددناها درساً فإن لنا أن نستخلص منها النتائج التالية :–

١ – شرف الآباء والأجداد غير مُغْنٍ فتيلا عن الأبناء والأحفاد إذا هم لم يسلكوا سبيل المجد والشرف الذي سلكه آباؤهم وسار عليه أجدادهم ، وهذا ما قرره رسولنا الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : (من أبطأ به (١) عمله لم يسرع به نسبُه .)

٢ – أن المجد والشرف كالعزة والكرامة لن تكون من نصيب أحدٍ إلا مَن كان لله فوقف كلَّ حياته على الله تحقيقاً لمبدإ : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له ، وبذلك أمرت) .

٣ – أن ماشاهده العالم من حروب وما ذاقه من ويلاتها في هذه الحقبة من الزمن أي مِن لدن فسدَ شعبُ بني اسرائيل ووطن نفسه على إفساد العالم وتخريبه لصالحه كما يُفكِر ويعتقد ، يتحمل اليهود مسئوليتها ؛ إذ هم المدبرون لها ، الموقدون نار فتنتها .

٤ – أن المذاهب الهدامة المخربة على أختلاف أسمائها ، هي من وضع اليهود وتصميمهم ، وإن رَوَّجها الأغرار الأغمار المخدوعون من غير اليهود تحت شعارات غير يهودية ونسبوها إلى أشخاص غير يهود .

هذه أربع نتائج أستخلصناها – . . . من هذه العبارات السابقة ، أما العبرة وهي ما أردنا أن نتحراه في كل كلمة من هذا الحديث القصير فهي : أن على المسلمين أن يتحركوا في اتجاه جديد وهو اتجاه الإيمان الصادق الباعث على العمل الصالح ، والعلم الصحيح المثمر لخشية الله تعالى في القلوب ؛ إذ بهما وحدهما يكون اكتساب المجد والحصولُ على العزة والكرامة . وأن يطّرحوا جانباً الاغترار بشرف النسبة إلى الإسلام دون العملِ بمنهاجه والسيرِ في خطّه المستقيم ؛ فإن اليهود لم يُغن عنهم ما كان لآبائهم إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب من رفعة وكمال ، ولا لداود وسليمان من مفاخرَ وأمجاد ، ولم تَحُل كرامة آبائهم وشرف أجدادهم دون ما تورطوا فيه من شر وفساد ، وذل وصغار يوم انحرفوا عن خط السير الذي كان يسير عليه آباؤهم الأفضلون . كما أن على المسلمين أن يتبرَّأوا بل يكفروا بِكُلِ مبدإ غير مبدإ الإسلام . وأن يحذروا كلَّ (أموضة) تظهر في العالم تخالف شرع الله وسواء

---

(١) هذا بعض حديث رواه مسلم

كانت في الملبس أو المأكل والمشرب ، والمسكن أو المركب ، أو في التخطيط والتشريع فإنها من صنع اليهود لتخريب الذمم والضمائر وإفساد الأخلاق والعقول : إنها بمثابة الطرود البريدية المُلَغَّمَة .

نشـــأة اليهـــود

والآن ــ أيها القارىء الكريم نلقي نظرة خاطفة على نشأة اليهود بذكر أصولهم الطاهرة آتين على تلك الفروع الفاسدة الخبيثة ، وما أثمرته من خراب ودمار في العالم ، قصدَ العِظة والاعتبار ، والله من وراء القصد . فنقول : لما هاجر إبراهيم عليه السلام من أرض العراق إلى أرض الشام هاجر معه إبن أخيه هاران وهو لوط عليه السلام ، وكان قد أرسله الله تعالى إلى المؤتفكات وهي خمس مدن من أعظمها سدوم وهي التي أقام بها نبيّ الله تعالى لوط ، وأتاه ضيف إبراهيم عليهم السلام بها. فدعا لوط أهل تلك البلاد إلى عبادة الله تعالى وتوحيده ثم إلى ترك ما شاع بينهم وفشا فيهم من ارتكاب فاحشة اللواط إتيان الذكران من العالمين وهي أبشع فاحشة أرتكبت على وجه الأرض حتى اليوم . فكذب القوم لوطاً ، وأصروا على كفرهم وفسادهم ، وأذن الله تعالى بعذابهم وتطهير الأرض من رِجسهم فأرسل ملائكة قيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل لإهلاكهم ، وكان يومها ابراهيم عليه السلام بأرض فلسطين على فراسخ معدودة من تلك البلاد ، فنزل الملائكة عليه ضيوفاً وكان من شأنهم ما قص الله تعالى في كتابه . ومحل الشاهد من ذلك أن الملائكة بشرت امرأةَ ابراهيم سارَّة ، وهي قائمة مع زوجها على خدمة أولئك الضيوف بَشَّرَتْها بمولود على عقمها ، وشيخوخة زوجها ، وأن المولود سيكبر ويتزوج ويولد له ولدٌ هو يعقوب (إسرائيل) عليه السلام . وهذا ماجاء في سورة هود من القرآن الكريم ؛ إذ قال تعالى: (لقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة . قالوا : لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) . وكَبِر إسحق المبشر به وتزوج على عهد والديه فيما روى وَوُلِد له ولدٌ هو يعقوب النافلة ؛ لقوله تعالى من سورة الأنبياء : (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين) . وبولادة يعقوب وهو الملقب بإسرائيل ولدت هذه الأمة أمةُ بني إسرائيل ذات الأصول السامقة في سماء الشرف والكمال ، والفروع الهابطة في مهاوي الخسة والنقصان. ولايخفى ــ على الحضور ــ سببُ تلك الرفعة ، ولا علّةُ هذا الهبوط والإنحدار. إن رفعة الأصول كانت بطاعة الله وإن حطة الفروع كانت بمعصية الله فاعتبروا يا أولى الأبصار !

سبب هجرة إبراهيم

وقد يتساءل المرءُ عن سبب هجرة إبراهيم من أرض العراق إلى أرض الشام ، وعن الداعي إليها ، والدافع عليها ، وماكان هناك حاجة إلى ذكر ذلك ومعرفته لولا مافيه من العبرة التي نتوخاها دائماً في حديثنا هذا عن اليهود . إن السبب المباشر لهجرة إبراهيم من بابل العراق إلى الأرض المباركة الشام هو أذى قومه وعلى رأسهم والده آزر ، واضطهادُهم له من أجل دعوته إلى ربه سبحانه وتعالى ، وذلك بأن يُعبدَ اللهُ وحده ولا يشرك به سواه . إنهم قد اضطروه إلى الهجرة وألجأوه إليها بعد أن حكموا عليه بالإعدام وباشروا تنفيذَه فيه فألقوْه في أتون جحيم يُذيب الحديد غير أن الله سلم ونجىَّ وليّه وأحبط كيدَ أعدائه: (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين قلنا يانار كوني برداً وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلنا هم الأخسرين)، وموجز القول أن إبراهيم كاد لآلهة المشركين وحطمها فعلا ، وحوكم علَنَاً ، وحُكم عليه ، ونفّذ الحكم ، فألقي في النار ، غير أنه نجاه الله و بعدها مباشرةً قرر الهجرة فهاجر إلى أرض الشام . كما جاء ذلك في غير موضع من القرآن الكريم مثل قوله تعالى : (فآمن لَهُ لُوط وقال إني مهاجرإلى ربي إنه هو العزيز الحكيم)،وقوله (فلمّا اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب) . وبهجرة إبراهيم إلى الشام تمّ الذي سبق أن ذكرناه .

والعبرة من حادثة الهجرة هذه: أن الداعي المخلص إذا لم تَنبُت دعوتُه في أرضٍ مّا طلب لها أرضاً أخرى ، وإذا لم تُجْدِهِ في تحقيق دعوته وسائلُ غيّرها بوسائل أخرى ، وهذه سنة الدعاة الصادقين غير أنه لا ينبغي أن يكون التغيير على حساب الصبر والثبات : إنهم عليهم السلام ما كانوا يلجأون إلى التحول والتغيير إلا بعد الثبات الطويل والصبر المرير ، وحتى يستخدموا كلّ ممكن ، ويجرّبوا كل جائز معقول ؛ فإذا أعيتهم الحيل ، وفشلت في أيديهم الوسائل طلبوا الانتقال والاستبدال . وذلك هو مبدأ الهجرة الواجب اتخاذُه والعملُ به ويومها لن يعدم الداعي رفدَ الله وتأييدَه . قال الله تعالى في إبراهيم : (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ،ووهبنا لهم من رحمتنا ، وجعلنا لهم لسان صدق علياً). وقال تعالى في هجرة المسلمين : (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة).

يعقوب بأرض كنعان

وإذا ما عُدْنا ــ أيها القارىء الكريم إلى الحديث عن نشأةِ بني إسرائيل فإنا نُلاحظ أن يعقوب

وهو إسرائيل عليه السلام لم يَجْرِ له ذكر في القرآن الكريم أيام طُفولتِه وصباه ، وكذا الحال بالنسبة إلى والده إسحق عليهما السلام ، اللهم إلا ما كان من خبر البشارة بهما ففي سورة هود عليه السلام : (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) ، وفي سورة الصافات : (وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحق ، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) . أمّا إسماعيل عليه السلام فقد جاء الحديثُ بذكر طفولته في الكتاب والسنة معاً ففي القرآن : (ربّ هبْ لِي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يا بنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ماتُؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) الآيات ... فالطالب المبشر إبراهيم والغلام المبشر به إسماعيل وهذا أصح قولين في المسألة . كما جاء في الصحيح قصةُ سَفَر إبراهيم بجاريته هاجر المصريّة وإسكانِها مكة مع ولدها إسماعيل عليهم السلام ، وأن إبراهيم كان يزورهما وأن إسماعيل تزوج من جرهم ، وزاره مرة إبراهيم بعدَ موت والدته هاجر ، فلم يجِده بالمنزل وإنما وجد زوجه الجرهمية فعهد إليها : أن تقرىء زوجها السلام وتقول له : غيِّر عتبة بابك ، ومعنى ذلك أنه أمره بطلاقها وذلك لِمَا رأى من عدم خيريتها وصلاحها لولدِه . فطلقها إسماعيل طاعة لوالده ، وعملا بإرشاده كما جاء في القرآن أن إسماعيل شارك إبراهيم عليهما السلام في بناء البيت ؛ فقد ورد ذلك في قوله تعالى من سورة البقرة : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) الآيات . . .

أما يعقوب عليه السلام فلم يذكر في القرآن الكريم بعد البشارة به إلا وهو نبي ورسول حيث ورد ذكره في سورة يوسف عليه السلام ، باسمه الصريح في قوله تعالى : (واتبعتُ مِلّة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب)، وفي قوله (الا حاجةً في نفس يعقوب قضاها ، وانه لذ وعلم لما علمناه) ، وبعنوان الأبوة في قوله تعالى : (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) . وذُكر له فيها ولولده يوسف وإخوته الأحد عشر حوادثُ جسام مؤلمة ، ظاهرها محرق ، وباطنها مشرق ، انتهت تلك الحوادث التي دامت مدة تقارب الأربعين سنة انتهت بانتقال تلك الأسرة الإسرائيلية بكاملها من أرض كنعان (فلسطين) إلى أرض مصر . وبرزت في تلك الحوادث أمور ذات بال نذكر منها — للعبرة — ما يلي :—

١ — إقبال يعقوب عليه السلام على ولده يوسف وخاصة بعد الرؤيا التي رآها ، وتعلُّقُه به لما تجلّى فيه من مخايل النبوة ، دون باقي إخوته ، حمل أولئك الإخوة على الكيد له والمكر به ، الأمرُ الذي

عرضه للهلاك ، وانتهى به إلى البيع رقيقاً يخدم في بيت العزيز بمصر ووجه العبرة من هذه أن على الأب الحازم ذى الأولاد العديدين أن يتحاشى العطف الكبير ، والميل الكثير إلى أحد أبنائه دون باقيهم ؛ لئلا يوقعهم في بغض أخيهم ، والحقد عليه ، وكذا صاحب الزوجين أو الزوجات عليه أن يتحامى إظهار الحب لبغض دون البعض ، وإلا تسبب لنفسه ولمن أحب من أزواجه في متاعب وآلام هو في عافية وأمنٍ منها .

٢ — ان يوسف عليه السلام تَعَرَّضَ لمحن قاسية جداً ، أولاها : إلقاؤه في الجب . وثانيتُها : بيعُه عبداً بثمن بخس وهو الحر الكريم بن الكريم بن الكريم وثالثتُها تعلُّق قلب امرأة العزيز به ومراودتها إياه عن نفسِه . ورابعتُها : دُخُولهُ السجن ، ومكثه فيه نحواً من سبع سنوات . والعبرة في هذه من وجوه :—

١ — أن الله تعالى لم يتخلَّ عن يوسف وَلِيِّه وهو في غَيَابَةِ الجب بل كان معه بلطفه ورحمته وآنسه حتى خرج منها سليماً معافى .

٢ — أن يوسف لما رفض عرْضَ امرأة العزيز الرخيص وأبى الخيانة ، وقال في صدق : (معاذ الله إنه ربي أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون) ، جزاه الله تعالى على صدقه ووفائه بخير جزاءٍ وأحسنه ، فإنه لمّا همَّ بضرب تلك المرأة المتعالية عليه بسلطانها المدلّة عليه بجمالها أراه ربه من الكرامات ما صرفه عنها كما قال تعالى(كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ؛ إنه من عبادنا المخلصين) . فَصَرَفَ عنه السوءَ ، وهذا من حفظ الله تعالى لأوليائه ، وعصمته لأنبيائه .

٣ — ان يوسف آثر السجنَ وغياهبَه على العيش ورغدِه خارجه صيانة لنفسه عن السوء ، وبعداً بها عن مواطنه ؛ إذ قال رب السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه .

٤ — أن يوسف لما ظهر لأهل السجن مشارقُ معارفه ، وطلعت عليهم شمس أسرار نبوّته نسب ذلك لربه وعلّله بصادق عِلّته فقال : (ذلكما مما علمني ربي ، إني تركت ملّة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) .

٥ — أنه عليه السلام لم تُنسه آلام السجن وأتعابُه ولا غربته وأحزانُه رسالةَ ربّه فقد دعا زميليه

في السجن إلى عبادة الله تعالى وتوحيده ، وأقام لهم البرهان على بطلان الشرك بالله والكفر به وهو يقول : (يا صاحبي السجن آرباب متفرقون خيرٌ أم اللهُ الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

٦ ـ أنه عليه السلام لمّا غفل تلك الغفلة عند باب السجن وهو يودع زميله الذي حكمت المحكمة ببراءته وإعادته إلى خدمته بالقصر ، فقال : (أذكرني عند ربك) ، فأنسى الشيطانُ زميلَه أن يذكره عند ربه ـ على أحد تفسيرين ـ فأطال الله مدة سجنه فكانت بضع سنين .

وهكذا وإن كان من باب قولهم : حسنات الأبرار سيآت المقربين فإن العبرة فيه أن الله تعالى أمر بالتوكل عليه ، وأحب المتوكلين من عباده ، وأخبر أن من توكل عليه كفاه . كما شرع الأخذ بالأسباب ، وأمر باستعمالها غير أن الأسباب تختلف فمنها ما يجوز استعماله ومنها مالا يجوز ، وقد يشتبه على غير البصير العارف ذلك فيترك التوكل ظناً منه أنه إنما أخذ بسبب جائز وهو في الواقع غير جائز فيُحرَم لذلك معونة الله وكفايته للمتوكلين عليه .

ومثال ذلك إعطاء الرشوة للحاكم ، والركون إلى الظالم ، ومداجاته ، وتملق ذوي السلطان أو الطول والغنى ، ومجاراتهم في ميادين الأهواء والشهوات ، فهذه قد يعدها غير البصير من باب : الأخذ بالأسباب الموصلة إلى تحقيق اغراض الشخص ، والمؤمِّنة لبعض منافعه ومصالحه وهي في الحقيقة منافية للتوكل على الله تعالى والاعتماد عليه ؛ لأنها أسباب محرّمة قد نص الشارع على تحريمها ومنعها . هذا ، وقد يُرفع مقام المرء في باب المعرفة بالله والتوكل عليه فيَحسُن به ترك بعض الأسباب التي عُرفت بالتجربة أنها غير ضرورية : كما ترك عمران بن حصين التداوي ، أو الكي ، وكما رفض الصديق الطبيب وقال : الطبيب أمرضني . وجاء في صحيح الخبر أن سبعين ألف من هذه الأمةِ منهم عكاشةُ رضي الله عنه يدخلون الجنة بغير حساب ، وجاء في تعليل ذلك أنهم كانوا لايرقون ولا يسترقون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكلون . فليذكر هذا أولئك الذين يدّعُون الإيمان بالله والتوكل عليه وهم يتّجِرون بالمحرمات ، ويتعاملون بالربويات ، وليذكره أولئك الذين يتركون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفاظاً على مناصبهم ، وقد يغشون المحرمات ويتركون الواجبات بدعوى المجاملة ، والرغبة في ترك الفوضى

والتشويش . وأخيراً فبعد تلك الحوادث المحرقة كانت العاقبة المشرقة ، فقد رأى الملك رؤياه ، الأمر الذي استدعى إخراج يوسف من السجن ، وإعلانَ براءته ، وإسناد وزارة المال والاقتصاد إليه . وفي هذا الأخير يقول الله تعالى : (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) . وأدار يوسف بعلمه وأمانته شؤون الوزارة وتمَّ له بذلك المنصب الحساس أن دبّر أمرَ إستقدام كافة أسرته إلى مصر ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وقال (يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي ؛ إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ؛ إن ربي لطيف لما يشاء ؛ إنه هو العليم الحكيم) .

إسرائيل وبنوه بمصر

والآن – أيها القارىء الكريم وباستقدام يوسف عليه السلام لأبويه وإخوته وأهليهم أجمعين إلى مصر فقد أصبحت مصر الوطن الثاني لبني إسرائيل بالهجرة إليه ، وفي قوله تعالى حكاية عن يوسف : (وائتوني بأهليكم أجمعين) وهو يخاطب إخوته الوافدين عليه للميرة دليلٌ على أنه لم يبق من أسرة يعقوب ابن إسحق عليهما السلام بأرض كنعان أحد . وأن الجميع نزلوا مصر وأصبحت لهم داراً بدلا من أرض كنعان التي نزلها إبراهيم عليه السلام مهاجراً إليها من أرض العراق . وبمرور الزمن تكونت من تلك الأسرة المهاجرة إلى مصر أمةٌ كبيرة يزيد عددُ أفرادِها على نصف مليون نسمة ، وما زالت بمصر إلى أن خرج بها موسى وهارون عليهما السلام بعد جهاد كبير لفرعون وملائه من الأقباط والملاحظ هنا أن يوسف عليه السلام نبيء وأرسل بمصر دون سائر إخوته ؛ إذ هو الذي صرح القرآن برسالته في قوله : (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) ، أما إخوته فالظاهر من حالهم أنهم لم يكونوا أنبياء ولا رسلا ، وسلوكهم ينبيء بذلك ، فما اقترفوه من ذنب إزاء والدهم وولده يوسف يتنافى مع منصب النبوة ومقام الرسالة . وإن قيل : أليسوا هم الأسباط المذكورون في قوله تعالى : (قولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط؟) قيل المراد من الأسباط الأنبياء الذين هم من أولاد يعقوب إخوة يوسف ؛ إذ الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في قريش ، فقبائل قريش انحدرت من عدنان ، والأسباط انحدروا من ولد يعقوب الأثنى عشر . والجدير بالتنبيه إليه هنا أن

القرآن الكريم لم يذكر عن بني إسرائيل بعد استيطانهم مصر شيئاً إلى عهد موسى وهرون عليهما السلام ، اللهم إلا ما كان من نبوة يوسف ودعوته إلى التوحيد بين المصريين ، وشكّهم في رسالته كما هو صريح قوله تعالى من سورة غافر : (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) ، وإلا ما كان من ذكر استضعاف الفراعنة لبني إسرائيل في قوله تعالى: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض). والمراد بهم قطعاً بنو إسرائيل . وبناء على هذا فإن بني اسرائيل لم يسعدوا بمصر طويلا ، وأن حالهم تغيرت بعد موت يوسف الرسول عليه السلام ، واعتبرهم الأقباط أجانب عن بلادهم – إن لم يعتبروهم مستعمرين لهم – فعاملوهم معاملة أساءوا إليهم فيها ، ولا يبعد أن يكون سببَ ذلك ما لاحظوه في بني إسرائيل من شرف الأصل وسمو الفرع . وتَطلُّعُ من كان هذا حالَه إلى الملك والسيادة لا يخفى ، فخافوهم لذلك وحسدوهم فعاملوهم بأقسى أنواع المعاملة وأشدها ؛ لاسيما وأنه لم يكن لبني إسرائيل مِن يَدٍ يدفعون بها عن أنفسهم لغربتهم وقلة عددهم ، وعدم وجود من يتعاطف معهم خارج البلاد المصرية ؛ إذ هم أغْرَابٌ في كل المنطقة لأن المعروف أن إبراهيم عليه السلام وهو الأصل الكريم الذي انحدروا منه كان عراقياً هاجر إلى أرض الشام فتكونت له بها أسرة في فلسطين ثم نزحت هذه الأسرة إلى مصر كما تقدم بيانه ، وبقي بأرض الشام سكانها الأصليون وهم الكنعانيون . ومن هنا كان ادعاء اليهود اليوم بأن فلسطين أرضهم وبلادهم إدعاء باطل لا أصل له . كما هو ظاهر هذه الحقيقة التاريخية الثابتة .

عهـــد الإنقـــاذ :

وبينما بنو إسرائيل يرزحون تحت نير الاستعباد الفرعوني ويخضعون لأعظم تعسّف عرفه الإنسان حيث يُذبح أبناؤهم ويستحيا للخدمة نساؤهم وهم من هم ؟ أبناء أولئك الآباء البررة الصالحين إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وإذا بامرأة عمران الإسرائيلية تحمل بجنين سيكون انقاذُ بني إسرائيل بإذن الله تعالى على يديه . وتتولى عناية الله تعالى حماية المولود ورعايتَه ، فيسلم من الذبح المقرر لأمثاله وينجو منه بأعجوبة تدبير الله سبحانه وتعالى ؛ إذ أوحى إلى أمه : (أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه في اليم) . ففعلت ونجا المولود من الذبح المحتّم على مواليد بني إسرائيل في تلك الحقبة من الزمن. ومن تعاجيب الله تعالى أن موسى المنقذ لشعب إسرائيل لن يتربى إلا في قصر فرعون وفي حضن امرأته وهناك وفي البلاط الملكي يشبُّ موسى ويترعرع تَرْعَاهُ عينُ الله ، وتحرسه عنايته ، وكيف وقد قال

تعالى له (وألقيت عليك محبةً مني ولتصنع على عيني). وبينما موسى في ريعان شبابه وعنفوانه يتجول في شوارع العاصمة إذا برجلين يقتتلان أحدهما من شيعته والثاني من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ومات لفوره . فكان هذا سبب خروج موسى الأول من مصر ، (فخرج منها خائفاً يترقب ، فقال ربِّ نجني من القوم الظالمين). وقادته الأقدار ، وساقته العناية الإلهية إلى أرض مدين ليقضي سنوات معدودات في أرض مدين . وما إن أتم عقدَ اتفاقية مع شعيب عليه السلام وهي عقد إيجارِ رَعْيِ غنم ثماني أو عشر حجج ، مقابل إشباع بطن وإحصان فرج . حتى تاقت نفسه إلى العودة إلى الوطن لزيارة الإخوان والأم ، وسار موسى بأهله يريد بلاده ، تلك التي نشأ فيها وتربّى في أحضانها ، وإذا بالقدر يخبىء له أعظم مفاجأة في تاريخ حياته المليئة بالأحداث ، تلك هي التي تمت حسب تدبير الله تعالى بالشاطىء الأيمن من الوادي المقدس في البقعة المباركة من الشجرة ؛ إذ ناداه ربه : (ياموسىَ إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، وأقم الصلاة لذكري) . وتَمّتَ نبأه ربُه وأرسله ، وسلّحه وزوده ، وبعث به إلى فرعون وملائِه ، مطالباً بأسنى مطلب وأشرفه ، وهو الاعتراف بالله تعالى رباً وإلهاً ، لارب غيره ولا إله سواه ، وتحرير بني إسرائيل ، والخروج بهم إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم إذهم أبناءُ أوليائه وأهل طاعته في ذلك الزمن !

ولولا مخافة السآمة على القارىء الكريم لاستعرضنا الآيات القرآنية التي اشتملت على حياة موسى الكليم من لدن حمل أمه به إلى هذه اللحظة من حياته وهو يتهيأُ لأكبر مجابهة كانت بين إنسان وإنسان ، وهي مجابهة موسى لفرعون . غير أن الخوف على القارىء من السآمة لا يمنعنا منَ الإشارة إلى نقطتين حساستين يجب الوقوف عندهما ، ألا وهما : أولا : أن هذا التاريخ التفصيلي الدقيقَ الصادقَ الذي نستوحيه من القرآن الكريم يُحدث به أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب يُحيلُ العقل البشري أن يكون غير وحي إلهيٍّ تلقاه محمد رسول الله ، من الله . وعليه فنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته إنكارهما يعد ضرباً من الجنون ، وتنكُّراً للعقل البشري وإهداراً لكرامته بالمرة . وثانياً : أنه عندما تم أمر الله تعالى لموسى بالإرسال إلى فرعون ، وتقدم بطلبه إلى ربه سبحانه وتعالى يطلب فيه التأييد والنصر علّلَ ذلك بقوله : (كيْ نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً). فجعل الغاية من الانتصار على الباطل وإقامة دولة الحق على أنقاضه التسبيحَ الكثيرَ والذكرَ الكثير . وهذا التعليل الحكيم من موسى للنصر هو ماجاء تعليلاً من الله تعالى لنصر المؤمنين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال تعالى من سورة الحج : (الذين إن مكناهم

في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) . فدل هذا وذاك على أنه يجب أن تكون الغاية دائماً من الجهاد والانتصار على الكفر والظلم هي أن يُسبحَ اللهُ تعالى بعبادته وحده ، ويذكرَ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر . لا أن تكون الغايةُ من الجهاد والنصر الاستعلاء والتسلطَ على المواطنين ، وسوقَهم بعصا القوانين الوضعية ، وأخذَهم بالمبادىء العلمانية حيث ينسى الله فلا يذكر ، ويعصى فلا يطاع ولا يُشكر ، كما هي حال الناس اليوم في ديار كانت بالأمس القريب معاقلَ للإسلام وحُصُوناً ، فأضحت اليوم حقولَ تجاربَ للنظريات المادية ، ومدارسَ لمحوِ العقائد الإسلامية ، وطمسٍ للقيم الأخلاقية . . ووا أسفاه ؛ ويا حزناه ! ويا ألَمَاه ! فما أشقى المسلمَ اليوم وما أتعسَه ! إذ هو أسير في أيدٍ لا تَرْحمُ ، وفي معتقل لا يرى فيه النورَ طول الحياة ! آه ، ثم آه !!

والآن ــ أيها القارىء الكريم ــ بِدَاية المعركة مع موسى وفرعون ، وصل موسى مصرَ أرضَ المعركة مُزوَّداً بعُدَّة كافية بإذن الله في قهر العدو والانتصار عليه ، وهي العصا ــ واليد ــ ووزارة هارون . وباشر موسى عليه السلام مهمته فقال لفرعون : (هل لك إلى أن تزكي وأهديك إلى ربك فتخشى)؟ . فردَّ فرعون قائلا ، (أنا ربكم الأعلى) . وقال موسى يافرعون إني رسول ربِّ العالمين فأرسل معي بني إسرائيل ، فكذب فرعون موضوع الرسالة وامتنع من إرسال بني إسرائيل ، فأراه موسى من الآيات الكبرى والمعجزات العظمى ما جعل فرعون يتورط في إتهام موسى بالسحر ويقول : (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) . ولا ندري فيمَا هيَ مُثْلَى ؟ أفي العلوِّ والفساد . أم هي على حدْ قولهم اليوم : الثورية التقدمية والاشتراكية العربية الإسلامية.

ولم يتردد فرعون في الدفاع عن باطله كما هي طريقةُ المبطلين وسنتُهم في كل زمان ومكان ، فطالب موسى بالمواجهة الفاصلة معه ، وأن يحدد موعداً لذلك فاختار موسى يومَ عيد لهم يجتمع فيه سائر طبقات شعبهم . فقال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ، فجمع فرعون شتاة طاقاته ، وأحضر جميع سَحَرَتِه من رجاله وتمت أعظم مباراة بين المُعجزة الإلهية والمكائد السحرية ، وانهزم الباطل وانتصر الحق ، وآمن السحرةُ وكثير من الخلق . ورأى فرعون زعزعة مركزه ، واهتزاز الأرض من تحت رجله . فأراد تلافي الموقف قبل استفحال الشر ، وانفلاتِ زِمامِ الأمر . فهدد السحرة وتوعدهم ، وبالخيانة الوطنية اتهمهم : وقال (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها

فسوف تعلمون ؛ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين) . وانفذ الطاغيةُ وعيدَه في السحرة فصلبهم وقتلهم ولم يعدم أيضاً من وزراء الشر ، وبطانة السوء من يقول مُشْلياً إياه ومُغرياً له بمواصلة القتل والتهديد: (أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ، ويذرك وإلهتَك) . فقال الطاغية : (سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) .

ـ ظاهرة خطيرة ـ

يَحسُن لفتُ النظر إليها . . وهي أنه لما هدد فرعونُ موسى وبني إسرائيل بالبطش والفتك كما تقدم . قال موسى لبني إسرائيل وقد ارتفعت رؤوسهم التي طالما انحنت أمام الطغيان والظلم ـ (قال يا قوم استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) .

أجاب قوم موسى ـ مع الأسف ـ على دعوة الصبر والصمود التي وجهها موسى إليهم ، أجابوا بجواب دل على مرض نفوسهم ، وضعف إرادتهم ، وانهزام أرواحهم ، ولا يبعد أن يكون هذا أثراً من آثار طول الذل والعبودية والاضطهاد الذي عاشوه ، فقالوا: (أوذينا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا) .

فكانت هذه منهم بداية خطيرة لها ما بعدها . غير أن موسى عليه السلام صبر على هذه الظاهرة الخطيرة وقال نافخاً من روح الإيمان في تلك الأشباح الخاوية والأرواح المتفانية : (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) .

وواصل موسى دعوته في عزم وتصميم يطالب فرعون بأن يرسل معه بني إسرائيل إنهاءً لتعذيبهم واضطهادهم وخروجاً بهم إلى أرض القدس . وفرعون يراوغ مرةً ، ويعاند ويكابر مرةً أخرى ، وموسى يُريه من الآيات ما يضطره إلى التسليم مَبْدَئياً بمطلبه فيعدُهُ ثم لا يلبث أن يُخْلِفَ وينكث ، ويُمانع في إرسال بني إسرائيل حتى إذا أضطرته الآيات المخيفة إلى الاعتراف بالحق صاح قائلا : (يا موسى أدع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل) .

ـ بداية استقلال ـ

وأخيراً ـ أيها القارىء الكريم ـ ولما طال تلكُّؤ فرعون وملائه في التسليم بمطالب موسى ، أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هرون أن يتخذا لبني إسرائيل داراً مستقلة عن الأقباط ، بعيدة عنهم في مكان ما من البلاد المصرية يقيمون فيها الصلاة ويجمعون فيها شتاتهم استعداداً للخروج من ديار مصر

إلى ديار الشام . كما قال تعالى (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوّآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين).

وامتثل الرسولان أمر ربهما ، وتمّ ذلك على أحسن الوجوه . وبه أصبح بنو إسرائيل شبه مستقلين عن السلطة الحاكمة التي تأرجحت تحت ضرباتِ المعجزات القاهرة ؛ فلم تصبح قادرة على اضطهاد بني إسرائيل والرجوع بهم إلى الخدمةِ والاستذلال والاستغلال . ولما أكتمل أمر بني إسرائيل في تلك المنطقة فاجتمع أفرادهم ، وقويت نفوسهم بإقام الصلاة ، وصحت عزائمهم بما بُشّروا به من قرب ساعة الخلاص أوحى الله تعالى إلى موسى : (ان اسر بعبادي إنكم متبعون).

ساعـــة الخلاص والنجاة

وفي صبيحة مشرقة من يوم أغر (وهو عاشر المحرم الحرام) — إغراق فرعون في يوم عاشور وليس هو يوم الخروج — خرج بنو إسرائيل من ديار مصر بقيادة موسى وهارون عليهما السلام متجهين نحو البحر في طريقهم إلى الأرض المقدسة التي وُعدوا بها .

وعلم فرعون — من قبلُ — بما عزم عليه بنو إسرائيل من الخروج من بلاده والتخلص من سلطانه ، فأعلن التعبئة العامة في كامل مملكته كما قال تعالى : (وأرسل فرعون في المدائن حاشرين : إن هؤلاء لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون) .

وخرجت جحافل فرعون تغطي السهل والوعر وكلها عزم وتصميم على استرجاع بني إسرائيل إلى نير الاستعباد ، وعهد التعسّف والاضطهاد . وما إن شاهد بنو إسرائيل جيوش فرعون تتقدم نحوهم حتى صاحوا قائلين : (ياموسى إنّا لمدركون) ! فأجابهم موسى مطمئناً لخواطرهم مذهباً الخوف من نفوسهم : (كلاّ ! إن معي ربّي سيهدين). وأوحى الله تعالى إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق ، ودخل بنو إسرائيل يمشون على يَبسٍ من الأرض حتى اجتازوا البحر إلى شاطىء السلامة ، ورأى فرعون مسلك بني إسرائيل من البحر فرمى بجنوده ونفسه في عرض البحر مُتّبِعاً بني إسرائيل ، ولما توسط البحر هو وجنوده أطبق الله عليهم البحر . فغرقوا وهلكوا ولم ينجُ منهم أحد اللهم إلاّ ما كان من فرعون فإن الله تعالى قد أنجى جُثّتَه لتكون آية لمن يراها فيعتبر بها وحصل أن فرعون أثناء غرقه آمن وأسلم فقال : (لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) . فقيل له : (الآن ، وقد عصيتَ قبل وكنت من المفسدين) . وكان حاله كحال القائل :

أتتْ وحياض الموت بيني وبينها

وجادت بوصل حين لا ينفع الوصلُ

ورُدَّ عليه إيمانه ولم يُقْبل منه إسلامه ؛ لأن الإيمان الاضطراري ، والإسلام غير الاختياري لا ينتفع بهما صاحبهما قال تعالى: (يوم يأتي بعض آيات(١) ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً) ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر) .

العـــبرة :

والآن نتساءل : ماهي العبرة في هذا العرض السريع لهذه الفترة من تاريخ بني إسرائيل ؟ ونجيب فنقول العبرة تتلخص في ثلاث نقاط :ـ

الأولى : أن طاقة الإنسان كقدرته محدودة . فالإنسان مهما أوتي من قدرة فهو عاجزٌ أمام قدرة الله تعالى ، لا يستطيع أن يفعل شيئاً أبداً ، ففرعون رغم ما أوتي من قوة نادرة في أمثاله من البشر فقد وقف أمام قدرة الله تعالى عاجزاً تتحداه فلم يقدر على فعل شيء حتى إنقاذُ نفسه عَجز عنه فأدركه الغرق فغرق ومات .

والثانية : أن القيادة الحكيمة ضرورية للخروج من المآزق الحرجة ، والفتن المظلمة ، فقد كان لقيادة موسى الحكيمة وهو يتلقى التأييد والعون من الله تعالى كان لها أثر كبير في تحرير بني إسرائيل ، وإنجائهم من ورطتهم والخروج بهم من محنتهم .

والثالثة : الإستعانة بالصلاة ـ قد أثبتت فعاليتها في تطهير النفوس ، وتقويم الأخلاق ، وتقوية الإيمان ورفع المعنويات ؛ لأنها تصل العبدَ بمصدر القوة وهو الله تعالى القوي المتين فيقوى بذلك ؛ولهذا فرضت على بني إسرائيل بمجرد حصول أدنى قَدْرٍ من الاستقلال الشخصي كما قال تعالى : (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين) .

وهنا فليسمح لي القارىء الكريم أن أسجلَ الحقيقة التالية وهي أن الدولة السعودية أعتمدت فيما أعتمدت عليه في دعمها وتقويتها ونشر راية الحق والعدل في ربوعها إقامَ الصلاة ، فقد كان أئمة المساجد يتعهدون كلَّ صلاة فجر أفراد الحيِّ ليعرفوا من شهد الصلاة ومن تخلفَّ عنها . وقد

---

(١) المراد من الآيات هنا العلامات الكبرى لقيام الساعة وذلك كطلوع الشمس من المغرب، وخروج الدابة ونزول عيسى عليه السلام.

حدثني أحد أبناء الملك عبد العزيز رحمه الله : أن والدهم غفر الله له كان يتولى بنفسه إيقاظ جميعَ أفراد الأسرة في آخر كل ليلة ؛ ليصلوا الصبح في جماعة ويشهد لهذه الحقيقة أننا لو نظرنا إلى هذه الدول الإسلامية التي نشأت في هذه الحقبة الزمانية لوجدناها نشأت ضعيفة مهلهة تعمها الفوضى ويسودها القلق والاضطراب ، ويكثر فيها الشر والفساد ، وما علّة ذلك إلا أنها يوم أُنشئت لم تُنشأ على أساس إقامة الصلاة المطهرة للنفوس المزكية للأرواح الناهية عن الفحشاء الصارفة عن المنكر . ومصداق هذا قوله تعالى : (وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر) .

العهد الجديد أو عهد الحرية لبني إسرائيل

بهلاك فرعون وجنده – ونجاة موسى وقومه ابتدأ بنو إسرائيل عهداً جديداً من حياتهم الاجتماعية والدينيّة والسياسية بَيْدَ أن آثار الماضي ورواسبه لم تبرح تعكّر صفْوَ عهد بني إسرائيل الجديد وهو عهد الحرية والكرامة . فإنهم وهم سائرون على ساحل سينا البحري وأعلام الهدى ترفرف على رؤوسهم وبينهم رسولان عظيمان موسى وهارون . مروا بأهل قرية يعكفون على أصنام لهم ، وما إن رأوهم حتى قالوا : (ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) . فما كان من موسى إلا أن وبّخهم ووعظهم وذكرهم بقوله : (إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يَعملون قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين) .

وهنا لنا أن نقول : إنه ليس من غريب الصدف أن يقع مثل هذا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وقد وقع بالفعل وفي معية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين عام الفتح من مكة يريد هوازن وثقيفاً حيث بلغه تجمعهم لقتاله ، وأثناء مسيره قال له من قال من المسلمين الحديثي عهد بكفر : يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للمشركين ذات أنواط وهي شجرة ينيطون بها أسلحتهم ويعلقونها عليها تبركاً بها واستمداداً للنصر ببركتها ، فرد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم غاضباً متعجّباً سبحان الله إنها السنن مَازِدْتُمْ أن قلتم كما قال بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . . ونحن هنا نقول : سبحان الله متعجبين من أولئك العلماء المسلمين الذين يدعون عصمة هذه الأمة من الشرك ، وهو يتخلل ديارها ويَنشأ عليه صغارُها ويَهرَم عليه كبارها . ولم يسلَم منه إلا مرحوم برحمة الله الخاصة جعلني الله وإياك أيها القارىء الكريم مِنْهُمْ ، اللهم آمين .

الزلـــة الكـــبرى :

والآن ـ تأخذ الحوادث تَكْشِف لنا عن تغيّر ذلك العنصر الكريم وفساده فساداً يدهش العقول ويحيرها . وقد يتساءل المرء عن سبب ذلك ولولا ما ظهر على يد أخوة يوسف غفر الله لهم من كذب على أبيهم وحسدٍ ومكر بأخيهم لجزمنا بأن أسباب هذا الفساد في هذا العنصر الطيب الأصل كان نتيجةَ مَانالَ بني إسرائيل من ذل وفقر ، وتعذيب واضطهاد في العهد الذي قضوه في مصر بين الأقباط تحت الحكم الفرعوني القاسي الشديد . فساءت لذلك أخلاقهم ، وفسدت طباعهم ، وتغيّرت نفسياتهم إلا من شاء الله سلامته منهم . . وهذا يصح أن يكون تعليلا مقبولا ؛ إذ قد رأينا بأم أعيننا كيف أثر الاستعمار الغربي في طباع المسلمين وأخلاقهم ، وكيف بدل من نفسياتهم وأفسد عليهم الكثير من دينهم في حين أن المجتمع الغربي لم يكن في شرٍ وجاهلية المجتمع القبطي على عهد الفراعنة ، كما أن فترة الاستعمار الغربي للمسلمين لم تَطلْ مُدتُها كما طالت على بني إسرائيل ، هذا . . ونعود إلى متابعة الأحداث في تاريخ بني إسرائيل ونقف عند كل حادثة نستجلي العبرة منها ونستوحي الموعظة إذ هذا الذي نتوخاه من محاضرتنا هذه فنقول : إن بني إسرائيل بعد أن استقلوا عن السلطة المصرية ونزلوا ساحل البحر من سينا أصبحوا في حاجة إلى قانون ودستور يساسون به ويحكمون بواسطته ومن هنا سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل سأله ذلك وواعده ثلاثين يوماً يصومها ثم يأتي موضعَ المناجاة من الطور فيعطيه الكتاب الذي يحكم به بني إسرائيل ، وترك موسى بني إسرائيل بعد أن استخلف عليهم أخاه هارون النبيّ عليه السلام ، ووصاه عليهم بالإصلاح بينهم ، ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين فيهم . وذهب موسى إلى ربه صائماً الليل والنهار مواصلا للصوم غير أنه بعد مضيّ الثلاثين يوماً أنكر تغيرّ خُلُوفِ فمه فاستاك ، فزالت تلك الرائحة التي هي أطيب عند الله من ريح المسك (١) فأمرته الملائكة أن يصوم عشرةَ أيام أخرى ليكلّم ربّه تعالى بذلك الخلوف الذي أنكره فغيره بالإستياك ، فكمل له أربعون يوماً كما قال تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ ، وقال موسى لأخيه هارون أخلفني في قومي ، وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين . ومازال موسى في مهمته التي ذهب لأجلها وهي مهمة الإتيان بكتاب يحكم به بني إسرائيل ، وإذا بالسامري أحدِ أفراد بني إسرائيل يجمع حُليَّ نساء بني إسرائيل ويصوغ منه عجلا ذهبياً له خوار ، ويدعي فيهم أنه إلههم وإلهُ موسى ، ويدعوهم

---

(١) يتسهد لهذا حديث الصحيح : لخلوف فم الصائم اطيب عند الله من ريح المسك

إلى عبادته ، ويستجيب له كثيرون فيعكفون على عبادته ، ولمّا قال لهم هارون : ياقومي إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن فاتّبِعُونِ وَأَطِيعُوا أمري : قالوا لن نبرح عليه عاكفين ، حتى يرجع إلينا موسى . فكانت هذه زلة كبرى أحدثت انقساماً وشراً خطيراً في شعب بني إسرائيل ، ودلت على وجود تعفّن في بعض أفراد ذلك الشعب ، وفسادٍ أخلاقيٍ وعقليٍ كبير . ورجع موسى وهو يعلم مسبقاً ماحدث في قومه؛ إذ قد أخبره ربه عز وجل بذلك : (ولقد فتنا قومك من بعدك وأضلّهم السامريُّ) . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ، وألقى الألواح غضباً لربه فتكسّرت ، وعاتب أخاه ، ثم تلافى الموقف بحكمة فأمر باحراق العجل وبرده ثم بِنسْفِه في اليوم . وعاقب السامري رأسَ الضلالة وصانعَ الفتنة بما يستحق ، ثم جمع الألواح التي كتب الله له وتكسرت بسبب إلقائها للغضب الذي تملكه كما قال تعالى (وكتبنا له في الألواح من كل شيء). وقال (وفي نسختها هدى ورحمةٌ للذين هم لربهم يرهبون) .

العـــبرة :

والعبرة من هذه الحلقة القصيرة في تاريخ بني إسرائيل – هي أولا : أنه بعد استقلال الأمة أو الشعب لا بد لها من دستور إلهيّ تحكم به تلك الأمة المستقلة . قد عرف هذه الحقيقة بنو إسرائيل وطالبوا موسى بها ولم تعرفه الشعوب الإسلامية اليوم ، فكانت تستقل شعباً بعد آخر عن الاستعمار الغربي ، ولم تطالب بالدستور الإسلامي ، ولم تبحث عنه بل تجاهلته ولم ترضى به ورضيت بدستور الدولة الكافرة التي كانت تحكمها به ، وهو دستور من وضع البشر الفاسد . أليست هذه زلةً أكبرَ من زلة بني إسرائيل التي وقفنا عندها آنفاً ؟ إنها والله لزلة عظمى كان لها أسوأ الأثر في حياة المسلمين اليوم ، فما هذه الردة العارمة ، والفساد العام ، والشر المنتشر في ديار الإسلام إلا نتيجة لتلك الزلة الكبرى التي لا تكفّر إلا بالرجوعِ إلى تحكيم الدستور الإسلامي الذي هو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وثانياً : أن بني إسرائيل مازالت آثار المعجزات العظمى قائمة بينهم ، ومنها إنفلاق البحر لهم ، ونجاتهم وهلاك عدوهم ، وقد حدثت فيهم فتنة الشرك وعبدوا غير الله تعالى جهلاً وغفلة ، فهل بعد هذا يستغرب أن يعبُدَ فئام من المسلمين اليوم القبور والأحجار والأشجار باسم التبرّك ، والاستشفاع والتوسل . مع بعد الزمن عن عصر النبوّة ، وأيام المعجزات المحمدية ؟ وكيف يسوغ

لمن ينتسب إلى العلم وطلبه أن يدافع عن هذا الشرك الذي وقع فيه خلق كثير من هذه الأمة . وبحجة عصمة الأمة من الوقوع في الشرك ، وما ندري كيف رأوا هذه العصمة ، ونصفُ الأمة أمامهم غارق في الردة والشرك الأصغر والأكبر والجلّيّ والخفي . فما أعجب حالَ هؤلاء العلماء ، وما أغرب موقفهم ! !

زلــة أعظــم :

ونعود إلى سَرْد الأحداث في بني إسرائيل لاجتناء العبر ، وسنقف عما قريب على زلة لبني إسرائيل أعظم من الزلة الكبرى السابقة : إنه بعد الذي حصل في بني إسرائيل من عبادة العجل ، إختار موسى من مشائخ قومه سبعين رجلاً وذهب بهم إلى ميقات ربهم ليعتذروا على زلة قومهم وليطلبوا التوبة لهم مما وقعوا فيه من عبادة العجل وما إن وصل موسى بهم إلى الطور ونزل الغمام على الجبل ودخلوا فيه ، وأخذ موسى يناجي ربه وهم يسمعون كلامه ، حتى قالوا : ياموسى أرنا الله جهرة ، فعاقبهم الله تبارك وتعالى على طلبهم الفاجر هذا فأخذتهم الرجفة فماتوا لفورهم ، وسأل موسى ربه حياتهم فأحياهم الله ، له وهو يقول : (ربِّ لوشئتَ لأهلكتهم من قبل واياي ، أتُهْلِكُنا بما فعل السفهاء منا) ؟

ورجع بهم موسى ومعه شروط التوبة المطلوبة لبني إسرائيل . ولما وصلوا خطب موسى في الناس ، وأخبرهم بكيفية توبتهم فقال : (ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم) ، فامتثلُوا أمر الله تعالى وجلس الذين عبدوا العجل ، وقام الذين لم يعبدوه على رؤوسهم يحملون الخناجر ، وألقى الله تعالى عليهم ظلمة شديدة فجعل بعضهم يقتل بعضاً إلى أن انجلت الظلمة عنهم ، وقد قتل منهم قرابةُ السبعين ألف قتيل ، فكان ذلك توبة لهم من قُتِلَ وَمَنْ بقي .

العبرة ، ولنقف هنا أيها القارىء الكريم لحظة نسجّل عبرتنا فنقول : إنها زلة كبرى زلها هؤلاء القوم الخيار ، إنهم بعد أن سمعوا كلام الله وهو يأمر وينهي قالوا : (ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) . وإذا كان هذا يصدر من عِلْية القوم وخيارهم فكيف بسوقتهم وأوباشهم ! إنها ظاهرة أكدت أن في القوم من ينطوي على فساد خلقيّ كبير ، وخُبْثٍ نفسيّ عجيب ، وسوف تنكشف لنا كل حلقة من حلقات هذه السلسلة التاريخية لبني إسرائيل عن عجيب وغريب في طباع

بعض اليهود ونفسياتهم مما يؤكد أن مانُسب إلى حكمائهم من أبرتكولات تحمل مخططاً ارهيباً لتدمير العالم الإنساني والقضاء على كل خير فيه ، لا يعد تزويراً عليهم ولا كذباً ينسب إليهم . وهذا جزء العبرة ، وجزؤها الآخر هو أن ما أشتُرط لقبول توبتهم كان شرطاً قاسياً في ظاهر الأمر غير أنه في باطنه رحيم وعادل ، لأن تلك القلوب القاسية والنفوس المتمردة الشاردة لا يصلحها إلا ماكان شديداً من الأمر قاسياً . فما أصاب المسلمين على أيدي هلاكو التتري من ويلات القتل والتخريب والتدمير كان عقوبة قاسية في أمة مرحومة ، غير أن الأمة المرحومة إذا أعرضت عن ذكر الله ، وتمردت عن شرعه فقست قلوبها وفسقت عن أمر ربها أستوجبت التاديب القاسي والعقاب المربّي الأشد .

ومن هنا يجب أن نعلم أن سنة الله لا تُحابي فالناس في نسبتهم الى الله تعالى واحدة وهي نسبة عبيد إلى ربهم ، فمن أحسن منهم فله الحسنى ، ومن أساء فله السوآى . فاعتبروا يا أولى الأبصار .

زلة ثالثة :

وهذه زلة ثالثة للقوم يحسن أن نمهد لذكرها ببيان الحقيقة التالية وهي أن الجماعة إذا فسدت وتأصل فيها الفساد يصبح من العسير إصلاحها ، ولا بد للمصلحين فيها أن يصبروا على محاولة علاجها زمناً طويلاً ينتهي بانتهاء تلك العناصر الفاسدة بالكلية ، وبوجود عناصر جديدة صالحة تختلف تمام الاختلاف عن تلك العناصر المتهالكة القديمة . وستتجلى لنا هذه الحقيقة في الحلقة التالية أما هذه الزلة الثالثة التي نريد الوقوف عليها للعظة والاعتبار فهي أن بني إسرائيل لما أنزل الله تعالى على موسى التوراة وهي كتاب فيه الهدى والنور أنزله الله ليحكم به النبيون في بني إسرائيل ما تعاقبوا إلى ماشاء الله تعالى . وأمر موسى بني إسرائيل بقراءته وفهمه وتطبيق شرائعه وتنفيذ أحكامه ، أعتذروا له عن عدم قبول ذلك والقيام به ، وذكروا عجزهم عن ذلك وعدم قدرتهم عليه ، فكان هذا منهم تمرداً خطيراً ، وزلّة لا تقل عما تقدمها من زلات عظيمة . وطالب موسى عليه السلام القوم بالإمتثال والطاعة فتأبّوا عليه وتمنعوا ، وما أقسى قلوب القوم ! وما أغلظ طباعهم !! وكان من المناسب لإخضاعهم لأمر الله تعالى ولو مؤقتاً أن يرفع الله تعالى فوق رؤوسهم جبلاً بكامله وهو جبل الطور تهديداً لهم وتخويفاً . ولما رأوه فوقهم كأنه ظلة أذعنوا لأمر الله تعالى وتعهدوا وأعطوا عهداً وميثاقاً بأخذ الكتاب وقراءته والعمل بما فيه . كما قال تعالى : (وإذ أخذنا ميثاقكم

ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة وأذكروا مافيه لعلكم تتقون) . غير أنه ومع الأسف لم يمض عنهم غير قليل زمن حتى نقضوا عهدهم ونكثوا فتعرضوا بذلك للعنة الله وغضبه كما قال تعالى : (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم) .

والعبرة من هذه الحادثة المعينة : أن هذه الأمة الإسرائيلية وهي تتدرّج للسقوط في هاوية سحيقة تكادُ تذهب بوجودها فضلا عن ريحها وقوتها ؛ لكفرانها بنعم ربها ، وتمرُّدِها على شرائعه وأحكام دينه ، لا يستغرب منها أن ترفض القانون السماوي وأن تعتذر عن قبوله لاَ مِنْ أجْلِ عدمِ صلاحيته كما يقول كفار المسلمين اليوم بل بعجزها وعدم قدرتها عن تحمُّل أعبائه ، ولعل الموعظة كالعبرة قد تجلت الآن واضحةً وهي أن الأمة الإسلامية اليوم برفض أكثرها للحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ورغبتها عن ذلك ، بل وبتصريح بعضها بأن الشرع الإسلامي أصبح غير صالح لحكم البشر وقيادتهم قد أصبحت تتدرّج إلى هاوية أعمق من تلك التي سقط فيها بنو إسرائيل ، لمّا رفضوا كتاب الله ، بعدم حفظه وتنفيذ مافيه ، ولن تكون هذه الهاوية تيهاً في مشكلة فلسطين فقط بل قد تكون ذهابَ الحرية والاستقلال ، وعودةَ الاستعمار وسواء كان الغربيَّ الذي سوف لا يرحمها حتى ببعض الرحمة التي عرفتها له من قبل أو الشرقيَّ الذي سوف يمسخها مسخاً لا تبقى معه تلك الأمة التي عرفها التاريخ ماجدة طاهرة صالحة .

ـ إلى الأرض المقدسة ـ

وبعد كل الذي جرى ـ أيها القارىء الكريم من أحداث جسام عزم موسى على السير ببني إسرائيل نحو الأرض المقدسة ، فجمع بني إسرائيل وخطب فيهم ، فوعظهم وذكرهم وحثهم على الجهاد والصبر ، وحذرهم من الإحجام والانهزام . كما حكى ذلك القرآن عنه في قوله : (وإذ قال موسى لقومه ياقوم أذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤتِ أحداً من العالمين ، ياقوم أدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) ، غير أن القوم جبُنُوا عن القتال ، واعتذروا بقوة عدوهم ، وقالوا : (إن فيها قوماً جبّارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) . والعجب من القوم أنهم أشترطوا لدخولهم الأرض المقدسة خُروجَ العمالقة منها . فيا تُرى من يُخرجهم منها ؟ فهل كانت يومئذ أممٌ متحدةٌ كما هي اليوم تطالب بإخراج العمالقة وتصدر قراراً بإخراجهم

فيخرجون ليدخل على إثرهم بنو إسرائيل ؟ أم هي العقلية المتحجّرة ، والفهمُ السقيم والانهزامية المفضوحة . وإن صَحَّ لنا أن نعلل هذا العجز والضعف المحيط ببني إسرائيل بأنه كان نتيجة الاضطهاد الفرعوني لهم عِدةَ قرون ، فإن هناك علةً أخرى وهي أن النقباء الاثنيْ عشر الذين بعث بهم موسى عليه السلام إلى أرض القدس ليكتشفوا مدى قوةِ العدوّ ويقيّموها بالقيمة الصحيحة لها ، ليكون موسى القائد على علم بذلك قبل خوض المعركة فإن هؤلاء النقباء لما دخلوا البلاد وعادوا ، عادوا وكلُّهم مخاوفُ ، فهوّلوا من شأن العمالقة وعظّموا من أمرهم ما أصبحوا به الطابور الخامس ، فبثّت تلك الأخبار الخيالية عن العمالقة وقُوّتِهم الرعبَ والخوفَ والهلع في نفوس بني إسرائيل الأمر الذي جعلهم يقفون من أمر القتال هذا الموقف المتداعي المنهار ومن باب الإنصاف أن نذكر أن اثنين من النقباء وهما يوشع بن نون ، وكالباً لم يخونا فيفشيا سِرَّ مَارَأيا من أمر العمالقة وهذا من إنْعامِ الله تعالى عليهما ولذا بقيا صامدين يطالبان بالقتال ، كما قال تعالى : (قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما أدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) فقد شجعا بني إسرائيل على القتال وهم على مشارف المدينة باقتحام أبوابها ومفاجأةِ العدوِ وضربِه فيها ضربةً تفقده صوابه . ولو فعلوا لكانت لهم النصرةُ والغلبة على عدوهم ، ولكن مانشره النقباء الآخرون من أخبار خيالية للغاية وكذلك يفعل الخوف بأصحابه — جعل بني إسرائيل يجبنون وينهزمون قبل القتال حتى قالوا : لموسى عليه السلام : (إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) . وهنا رأى موسى أنه لا جدوى من دفع هؤلاء الجبناء الرعاديد إلى المعركة وهم لها كارهون ، ومن حَوْمَتِها فارُّون ، فتبرأ منهم واعتذر إلى ربه قائلا (ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين). فأجابه ربُّه تبارك وتعالى بقوله : (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) .

— العـــبرة —

والعبرة من هذه الحادثة تَكْمُن في شيئين أثنين :—

أولهما : فقد الاعتبار والاعتدادِ بالشخصية الناشيء عن حياة الذل والمهانة زمناً طويلا مِن شأنِه أن يَترك صاحبه دائماً يشعر بالضعف والعجز أمامَ عدوِّه ، فلا يقدر على حربه ، وخوض المعارك ضِدَّه .

وثانيهما : الإعلان عن قوة العدو ونشر أخبارها مُبالغاً فيها ومُهَوِّلَةً ، من شأنه أن يصيب نفوسَ الجيوش بفقدِ المعنوياتِ والانهزامِ ، قبل الإلتحام . وقد استعملت هذا السلاح ألمانيا الهتلرية في الحرب العالمية الثانية ، ونجحت فيه أيّما نجاح في إبّان زحفها والتهامها لقارة أوربا تقريباً . كما أستعمله اليهود اليوم وحقق لهم ما حقق . ولولا ماحدث في رمضان ٩٣ لكان العالم إلى اليوم مازال يعتقد أن جيش اليهود لا يغلب ولا يقهر .

حادثة التيـــه

ونعود الآن – أيها القارىء الكريم إلى بني إسرائيل وقد أغضبوا عليهم ربّهم ونبيّهم بجبنهم وخوفهم . إنهم بعد أن تعرضوا لغضب الله تعالى وعقابه بتركهم الجهاد ، وخوفهم من العباد ، تاهوا في صحراء سينا فكانوا يرحلون يوميّاً ويقيمون فلا يتجاوزون مسافة تسعة فراسخ . قضوا على هذه الحال أربعين سنة كاملةً لا تنقص ولا تزيد . جرت لهم خلالها أمور بعضها مشرق وبعضها محرق فمن المشرق ما أكرمهم اللهُ به من تظليلِ الغمام لهم ، ونُزولِ المنِّ والسلوى عليهم وتَفَجُّر الماء العذب من حجر كان معهم . وإحياء القتيل لهم وإخباره بقاتِله دَفعاً لاصطدام قبائلهم وحقناً لدمائهم .

ومن المحرق أنهم سَئِمُوا المن والسلوى ، وطالبوا بتغيير طعامهم ولم يصبروا عليه فعوتبوا على ذلك ، (أتستبدلونن الذي هو أدنى بالذي هو خير ، إهبطوا مصراً فإن لكم ماسألتم) .

ومنها أنهم آذوا موسى عليه السلام ، فقالوا إنه آدر ، ولذا هو لا يغتسل معنا ، وبرّأه الله من هذه السُّبّة ، فاغتسل يوماً ووضع ثوبه على حجر فهرب الحجر به فخرج موسى يعدو وراءه ويقول : ثوبي حجر . . ثوبي حجر . حتى مر الحجر بجمع من بني إسرائيل ورأوا بأعينهم سلامته من الأدرة ، والتي هي انتفاخ إحْدَى الخصيتين . وفي القرآن الكريم : (يا أيها الذين آمنو لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً) ، ومنها وفاة الرسولين العظيمين موسى وهارون عليهما السلام .

هذا وبعد مضيّ مدة التيه بأحداثها ، وانقراض ذلك الجيل العاجز الضعيف ونُشوء جيل صحراوي جديد يتمتع بسلامة الروح ، وقوة الإرادة ، قاد يوشع بن نون وهو خليفة موسى في قومه قاد بني اسرائيل لقتال العمالقة ، وحاصر بلادهم ، وقاتلهم قتالا مريراً وفي أمْسِيةِ جُمْعةٍ من آخر أيام

القتال اقتربت جيوش بني إسرائيل من أبواب المدينة لاقتحامها ، وإذا الشمس كادت تغرب ، وإذا غربت وقف الزحف لحرمة القتال في السبت وحكمُ ليلة السبت حكمُ نهارها ، وخاف يوشع القائد الربّاني ضياع الفرصة وفواتها فسأل ربه أن يحبس عليه الشمس ساعة فحبسها الله تعالى عليه حتى أتمّ مأموريّتَه من اقتحام الأبواب ودخول المدينة واحتلالها .

وبسقوط العاصمة في أيدي بني إسرائيل . أخذت تلك البلاد تنهار المقاومةُ فيها وواصل يوشع احتلاله لها بلداً بعد آخر ، حتى استتبّ له الأمر في كلها ، وبذلك تكونت أول مملكة لبني إسرائيل تضم الأرض المباركة كلها شـــرقها وغربها كما قال تعالى : (وأورثنـــا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها). واستمرت مملكة بني إسرائيل قوية صالحة زمناً طويلا حتى أخذوا في السرف والنزف ، ففسقوا عن أمر الله وخرجوا عن طاعته ، فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسلط الله عليهم البابليين فغزوهم ، واجتاحوا بلادهم فسلبوا ونهبوا وقتلوا وخربوا بيت المقدس وأحرقوا التوراة ومزقوها ، وأخذوا التابوت إلى بلادهم وحَرَمُوا منه بني إسرائيل ، والتابوت عبارة عن صندوق فيه بقايا مما ترك آلُ موســـى وهارون . وكان بنو إسرائيل إذا قاتلوا عدواً لهم حملوه معهم متبركين به ، فترتفع معنوياتهم ويصمدون للقتال .

وعاش بنو إسرائيل بعد هذه الهزيمة وهذا التشريد أقسى ظروف وأشدها ، فقد تكون أسوأ وأشد من الظروف التي يعيشها الفلسطينيون اليوم ومنذ أن طردهم اليهود المعاصرون أبناء أولئك اليهود الغابرين الذي نستجلي العبرة من تاريخهم في حديثنا هذا .

واستمر الاحتلال البابلي لبلادهم طيلة سبعمائة سنة تقريباً ، وبنو إسرائيل يعيشون في أتعس حال وأسْوَإها ، وكان ذلك جزاءً وفاقاً لفسقهم وفجورهم . وما الله بظلام للعبيد .

العـــبرة

والعبرة في هذه تتجلي من قوله تعالى : (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلنّ علواً كبيرا ،فإذا جاء وعْدُ أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا).

فكانت هذه الأولى ، ففسادُ بني إسرائيل بالعمل بالمعاصي ، وعُلُوُّهم بالتمرد عن الشرع ، واهدارهم للعدل ، وحكمهم بالظلم هو الذي جرّ عليهم نكبة وجلب لهم محنة دامت سبعمائة سنة

تقريباً ؛ إذ قيض الله تعالى لهم شر عبادٍ له وهم البابليون بقيادة بختنصر فأنزلوا بهم ذلاً وعاراً دام مآتِ السنين جزاء فسادهم وعلوهم ، وتلك سنة الله تعالى في كل أمة يعطيها الله دولةً وسلطاناً فتسرف وتفسق وتظلم . ولْيعتبرْ أولو الأبصار .

العهـــد الثـــاني

لبـــني إســـرائيـــل

وبعد مضيّ زمن طويل من التشريد على بني إسرائيل ، وبلادهم محتلة من قبل البابليين وهم يعيشون محرومين منها حرمان العرب اليوم من أرض فلسطين نبتت في بني إسرائيل نابتة صالحة من شبيبة عاشت على التشريد والحرمان فذكرت مجد آبائها السالف وعزمت على البحث عن طريق للخلاص من المحنة التي تعيشها أمتها زمناً طويلا ، وكان فيهم عبد صالح هو النبيّ شَمْوِيلْ عليه السلام ، فذهبوا إلى نبيهم والتفُّوا حوله ، وقالوا عيِّنْ لنا قيادة نقاتل تحت رايتها في سبيل الله ، وتسترد مجدنا وبلادنا ، ولما يعلمه النبيّ شمويل من الضعف والتفكك صارحهم بأنه يخاف عليهم إن تعين القتال لم يستطيعوه ولم يصبروا عليه فأجابوه بقولهم : (ومالنا ألاّ نقاتل في سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) . فعيّنَ لهم شمويل ملكاً قائداً هو طالوت ، وكان أهلا لقيادتهم بما آتاه الله من الكفاية العلمية والبدنية . غير أن القوم لأمراضهم النفسيّة ، والتعفن الخلقي الذي يتوارثه البعض عن البعض نتيجة الفسق والإنحطاط المستمر في فئام منهم ، اعترضوا على نبيّهم في تعيين طالوت ملكاً لهم ، ولم يَخْضَعُوا لقيادته إلاّ بعد أن أظهر الله كرامة على يديه ، وهي رجوع التابوت إليهم تحمله الملائكة من أرض العراق إلى ديارهم . وبذلك قبلوا ولايته وانضوَوْا تحت رايته ، وقادهم إلى ساحات الشرف وميادين القتال ، وأثناء سيره بهم ، اختبرهم ليعرف من يصلح للجهاد منهم ممن لا يصلح ، فقال : إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غُرفة بيده . فلم يشرب منه من تلك الألوف إلا ثلثمائة وبضعة عشر عدة أصحاب بدر . ولما جاوز النهر هو ومن معه من المؤمنين ، قال بعضهم لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، وجالوت هو قائد قوات العدو فرد عليهم أهل اليقين منهم قائلين : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) . ولما برَزوا للعدو ، قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . وطالب جالوت بالمبارَزة على عادة الحروب القديمة . فخرج

له شابٌ مهيّأٌ للكمال مخصوص بعناية إلهية هو داود بن إيشا فبارزه فهزمه وقتله . فرشّحه هذا النصر المبكّر لقيادة بني إسرائيل فيما بعد ، والتحم الجيشان ، وهزم المؤمنون الكافرين بإذن الله كما هي سنة الله تعالى في كل معركة يلتقي فيه الإيمان بالكفر .

وبهذا النصر استرد بنو إسرائيل بلادهم وسلطانهم ، وأصبحت لهم دولة عزّها تناطح الجوزاء حيث كانت على عهد سليمان مملكة يمتد سلطانها على الشرق والغرب . وهذا هو عهد بني إسرائيل الثاني وهو عهد قوة وازدهار لانظير لهما . واستمرت الحال كذلك صالحةً حتى أترفوا مرة أخرى وأسرفوا فتبرّجت نساؤهم ، وفسق كبارهم ولها ولعب وعربد شبانهم ، وجار في الحكم قضاتهم قتلوا الأنبياء والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، تنازعوا الملك وسفكوا الدماء ، وجاء وعد الآخرة كما قال تعالى : (ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبّروا ما علوْا تتبيراً) . فسلط الله عليهم الروم فغزاهم القائد الرومي إسْنَانُوسْ بأمر قيصر الروم ، وثلّ عرشهم ، ومزق ملكهم ، وكان آخرَ ملوك اليهود الملكُ اغْرِبَاس الطاغية الظلوم الغشوم . وبسقوط هذه المملكة اليهودية على يد الروم تشرد اليهود وهاموا على وجوههم في العالم يلقون التعاسة والذل والمهانة حيثما حلوا وارتحلوا جزاء فسقهم وظلمهم ، وكتب الله عليهم ذلاً لا يبرح ومسكنةً لا تزول وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

والعبرة هنا كما هي هناك : الإنحراف عن الشرع ــ الظلم ــ الفساد ــ الخلاعة المجون هذه دائماً هي عوامل السقوط والهبوط ، وأسباب الدمار والخراب . فلو تتبعنا أنواع المظالم والفواحش والجرائم التي ارتكبها اليهود في عهد مابين موت سليمان إلى نهاية ملكهم لملأت آلاف الأسفار وهي جرائم سوداء يكفي فيها شهادة القرآن إذ يقول : (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) .

تشرد اليهود في العالم

أو العهد الأخير لليهود

إنه أيها القارىء الكريم بسقوط آخر مملكة لليهود على أيدي الروم تشرد اليهود في العالم وذهبوا

كل مذهب تطاردهم لعنات السماء في كل مكان ، غير أنهم لم يَيْأسوا من عودة ملكهم ، ومن الانتقام من العالم بأسره إن هم ظفروا به وملكوه وتحكموا فيه ؛ فلهذا لم يبرحوا يخططون ، ويضعون الخطط الجهنمية المدمرة للبشرية ، فكانوا وراء كل فتنة في العالم ، وخلف كل حرب يوقدون نارها بين الناس . ولما أشتدت عليهم وطأة الروم النصارى أعدائهم أخذوا يبحثون عن أماكن للهجرة بعيدةٍ عن أيدي أعدائهم يأمنون فيها ، وحتى يُواصلوا عملهم لإعادة مملكة إسرائيل في في الأرض المقدسة فيما بين النيل والفرات ، ونظراً لخلوّ جزيرة العرب من سلطان الروم الذي كان يقسو عليهم ، أخذوا ينزحون إليها فنزلوا تيما وخيبر وفدك ويثرب(١) لا سيما وأن التوراة قد بشرت بنبوة جديدة سيكون لها شأن كبير ، فكان يحدوهم الأمل أن يكون النبيُّ المنتظرُ المبشَّرُ به المنقذ لهم مما هم فيه . وقد حكى القرآن هذا الأمل لليهود في قوله : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به) . وتطلع اليهود حسب بشارات التوراة إلى النبي المنقذ الذي سيخرج من جبال فاران ، وتكون يثرب دار هجرته ، وعاصمة حكمه ، وأخذ الزمن يقترب ، وأضحت أيام النبوة الجديدة معدودة ، وظهرت في الكون ارهاصات ، ولاحت في الأفق تباشير .

وطلع الفجر ، وظهرت النبوة المرتقبة ، وبعث محمد صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة وطارت بخبر نبوته الركبان ، وبلغ اليهود النبأ كما بلغ غيرهم ، وأخذوا يرتقبون الأحداث ، ويتحسسون مجاري الأمور ، وكانت قريش تبعث إليهم بالتساؤلات والاستفسارات ؛ لِعِلْم قريش بأن اليهود أهل كتاب وهم أعرف بشأن النبوّة والنبيّ ، فكان اليهود يصدقون قريشاً أحياناً ، وعلى سبيل المثال أن قريشاً بعثت إليهم مرة تسألهم عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومدى صدقه فيها ، فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة أشياء فإن أجاب عنها كلّها – أولم يجب عن شيء منها فإنه ليس نبيّ وإن أجاب عن اثنتين ولم يجب عن واحد فهو نبيّ فروا رأيكم فيه . سلوه عن فتية فُقِدوا في الزمن الأول فإنه كان لهم حديث عجيب ، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها ماخبره ؟ ، وعن الروح . فكان في جوابهم هذا طابع الصدق فيما سئلوا عنه . وتوالت الأحداث وتجلّى لليهود أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو النبيّ المنتظر ، وأنه من ولد إسماعيل ، لا إسرائيل ، وتأكدت معرفتهم بما لم يُبْقِ للشك مجالاً ، وفي القرآن : (يعرفونهم كما يعرفون أبناءهم) . ورأوا أن في اتباعه

---

(١) يثرب اسم مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الاسلام

والإيمان به قضاءً على آمالهم في عودة ملك بني إسرائيل وسيادتهم وأن في قبول الإسلام واعتناقه إنهاءً كاملا وذوباناً تاماً لشعبهم .

فعزموا مِنْ ساعَتَئِذٍ على عدائه ومناوأته . ومِن ثم ما أصبحوا يصدقون قريشاً إذا سألتهم عن شأن النبيّ واستفسرت عن حاله والحادثة التالية تؤكد هذا . فقد وقع أن سافر كعب بن الأشرف مع وفد إلى مكة وذلك عقيب وقعة بدر ليقدموا التعازي لقريش ويعقدوا حِلفاً معها ضد محمد صلى الله عليه وسلم ، ويخبروها عن عزمهم على نقض المعاهدة التي بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم . ولما ارتابت قريش في صدق اليهود ، وخافت مكرهم وهم قوم بُهْت ، امتحنتهم ، فقال لهم أبو سفيان بن حرب زعيم قريش يومها ، وهم ضيوف في منزله : إن كنتم صادقين فيما قلتم فاسجدوا لهذين الصنمين . فسجدوا ، ثم قال أبو سفيان لكعب بن الأشرف : إنك أمرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميون ولا نعلم ، فأينا أهدى سبيلا نحن أم محمد ؟ فقال كعب : أعرض عليّ دينكم ، فقال أبو سفيان : نحن نسقي الحاج ، ونقري الضيف ونفك العاني ، ونصل الرحم ، ونعمر بيت الله ونطوف به ، ومحمد ﷺ فارق دين آبائه ، وقطع الرحم ، وفارق الحرم ، وديننا القديم ، ودينه الحديث . فقال كعب : بل أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد . وفي ذلك نزل قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) ! .

ـ اليهود بالمدينة النبوية ـ

والآن أيها القارىء الكريم نعود إلى المدينة النبوية لنرى موقف اليهود من الرسول صلى الله عليه وسلم وقد نزلها مهاجراً هو وعدد من المؤمنين به . فنقول نزل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة وكانت يومئذ تدعى يثرب ، نزلها مهاجراً بعد أن هاجر إليها كثير من المؤمنين بإذنه ، فدخل الإسلام المدينة بقائده وجنده ، واليهود يُكوِّنُون منها زاويتين منفرجتين جنوباً وشرقاً . وهم قبائل ثلاث : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، ولكل قبيلة أحلافها ومواليها من الأوس والخزرج . كما أن هناك يهوداً شمال المدينة يسكنون خيبر ، وتيما ، وفدك وما إليها من قرى ، وكانت لهم بالفعل شوكة قوية في هذه البلاد لا يُستهان بها فكان من الحكمة أن يعقد الرسول صلى الله عليه وسلم مع يهود المدينة المجاورين له فيها معاهدات سِلْم وحسن جوار ، فعقد صلى الله عليه وسلم مع كل

قبيلة عقد أمان ، وهذه فقرات من نصوص تلك المعاهدات : وأنّه مَن تبعنا من يهود فإنّ له النّصْرُ غير مظلومين ولا متناصِرين عليهم – وإنّ اليهودَ يُنفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين . وأن ليهودِ بني فلان ماليهود بني فلان إلاّ من ظَلَم وأثِم فإنه لايوتغ(١) إلا نفسَه وأهلَ بيته . وإن الله على أبَرّ هذا ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأنّ بينهم النصر على من حارب أهلَ هذه الصحيفة – وأن النصر للمظلوم وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلاّ من ظلم وأثم ، وان الله جار لمن بَرّ واتّقى ، ومحمدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر ماجاء في كتاب الموادعة .

بيد أن اليهود في هذه الفترة بالذات قد انعدم فيهم ماكان من بقايا الخير إلا قليلا ، وذلك لطول العهد بينهم وبين انبيائهم الذين كانوا يذكرونهم بالله تعالى ، ويخوفونهم نقمه : كما قال تعالى : (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) . فبمجرّد أن شاهدوا الرسول بالمدينة ، والمؤمنون من أنصار ومهاجرين يلتفون حوله امتلأت قلوبهم غيظاً وصدورهم حنَقاً ، وكادوا يغصون بريقهم . وزاد في آلامهم النفسيّة انتصاره صلى الله عليه وسلم على المشركين يوم بدر . فما كان منهم إلاّ أن كاشفوا المؤمنين بالعداء ، وصرحوا به . وشعر الرسول صلى الله عليه وسلم بعدم ارتياحهم لانتصاره في بدر فجمعهم في مكان ما من المدينة ودعاهم إلى الإسلام ، وحذرهم من مغبة كفرهم وفسقهم ، ومن نقض معاهداتهم معه . فقال قائلهم في صراحة : لايغرنك من نفسك ان قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لايعرفون القتال ، إنك والله لوقاتلْتنا لعرفت أنا نحن الناس ، فأنزل الله تعالى فيهم قوله : (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة (٢) تقاتل في سبيل الله ،وأخرى كافرة يرونهم مِثليهم رأيَ العين ،والله يؤيد بنصره من يشاء ، ان في ذلك لعبرة لأولى الأبصار) .

وهذا من الغيب الذي أخبر به القرآن قبل وقوعه فكان كما أخبر . فقد نقض اليهود عهودَهم قبيلةً بعد أخرى ، فغلبوا كما أخبر الله تعالى وهذه صورة لذلك النقض والغَلَب الذي تم بحول الله وقوته :–

١ – نقض بني قينقاع وغلبهم ، وسبب هذا النقض أن امرأة من العرب قد قدمت بجلب لها تبيعه في سوق بني قينقاع فباعته ، وجلست إلى صائغ تريد شيئاً فجعل يهود يُريدونها على كشف وجهها فأبت ذلك فعَمد أحدهم إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت

---

(١) لا يهلك

(٢) لم اخرج الآيات عتاباً على القارىء المسلم الذي يعيش دهراً ولا يحفظ كتاب ربه

سوءتُها فجعلوا يضحكون بها – وهذه ظاهرة تدل على انحطاطِ اليهود الخلقي ، وفسادِهم النفسي في ذلك الزّمن . وما كان من تلك المرأة العربية إلا أن صاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله ، وشد اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون ووقع الشر بينهم وبين يهود بني قينقاع فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه .وألحّ عليه ابن أبيّ(١) فوهبهم له،ولم يقتل منهم أحداً ، وأجلاهم صلى الله عليه وسلم عن المدينة فلحقوا بالشام .

٢ – نقض بني النضير عهدهم . وذلكم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج إليهم يستعين بهم على أداء دية رجلين معاهدين من المشركين قتلهما أحد المسلمين جهلاً بعهدهما ، فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير ، وأخبرهم خبره ، قالوا نعينك يا أبا القاسم على ما أحببت ، ثم خلا بعضُهم ببعض ، وقالوا إنكم لن تجدوه على حالٍ كهذه ، والرسول صلى الله عليه وسلم جالس مع أصحابه إلى جدارٍ من بيوتهم ، فقالوا ليبعضهم من يعلو هذا البيت فيلقي هذه الصخرة عليه فيقتله ويُريحنا منه ؟ فقال عمرو بن جحاش اليهودي : هو لذلك . وأوحيَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما دبره اليهود له ، فقام لفوره كأنه يريد حاجته ، ثم انطلق مسرعاً إلى المدينة ولحق به أصحابُه وبهذا الغَدْر في النقض أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب عليهم ، وتهيأ لقتالهم ، وخرج إليهم فحاصرهم حتى نزلوا من حصونهم ، ولم يقتل منهم أحداً ، وأجلاهم من المدينة فتركوا أموالهم ، وذهبوا بنسائهم وأطفالهم إلى خيبر ورحّبت بهم فنزلوها .

٣ – نقض بني قريظة ، وكيفيته : ان وفداً تشكل من يهود بني النضير نُزلاء خيبر برئاسة اللعين حُيَيْ بن أخطب ، وسلاّم بن أبي الحُقيق وأخيه كنانة وكلُّهم نضريّون وخرجوا يُؤَلّبون العرب ويحزبون الأحزاب على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وزار الوفد مكة وحرض قريشاً وحثها على الحرب ، ثم ذهب الوفد بعد نجاحه في مكة إلى بني أسد وغَطَفان فحرّضوهم على الحرب وأطلعوهم على عزم قريش على هذه الحرب واستعدادها لخوضها . ثم أتى الوفد المدينة متسللا واتصل بقريظة وأطلعها على ماتمّ ، ومازال معها يفتل غاربها حتى وافقت على نقض معاهدتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والدخول في حرب الأحزاب ،

---

(١) هو رئيس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول ، وكان بنو قينقاع احلافاًله.

على أن يكون دورها فيها أن تطعن الرسول صلى الله عليه وسلم من خلف عندما يحتدم القتال ويشتدُّ بين الفريقين .

وبهذا نقضت قريظة عهدَها ، وأعلنت حربها . ولما فشل المشركون في حملتهم وعادوا من حيث أتوْا خائبين ؛ إذ كفى الله المؤمنين القتال فلم يقع قتال . فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق ظهر يوم الأربعاء ، وأمر بقتال بني قريظة فأمر أصحابه على الفور أن يخرجوا إليهم ، وقال : لايُصلِّين أحدكم العصر إلا في بني قريظة ، فخرجوا إليهم وحاصروهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ وقد حكم فيهم بقتل مقاتليهم . فقُتلُوا جميعاً ، واسترقَّ نساؤهم وأطفالهم وذلك جزاء الغَدرِ والخيانة . وبناءً على إعلان يهود خيبر الحربَ بإيوائهم النَّضَريين والمشاركة المعنوية في حرب الأحزاب غزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهزمهم ودخل بلادهم وهو يقول : (إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين) ، وبهذا انكسرت شوكة اليهود بالجزيرة نهائياً ، وخرجوا منها حيث لا يعودون إلى الأبد . إن شاء الله تعالى .

العـــبرة

والعبرة من هذا ــ أيها القارىء الكريم أن اليهود لا عهد لهم ولا ذمة ، وأنّه لذلك لعنهم الله تعالى لعنة أبدية ، وجعل قلوبهم قاسية لا ترق وطباعهم غليظة لا تلين فقال تعالى عنهم : (فبما نقضهم ميثاقَهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً) . وقال : (وكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون). فأصبح مع هذا من غير المعقول أن يُطْمأنَّ إلى معاهدة تُعقدُ مع اليهود ، أو مهادنة أو موادعة بحال من الأحوال ؛ إذ من المؤكد أنهم سينقضونها لأول فرصة تسنح لهم فمن الحكمة والحزم محاربتُهم وقتالهم إلى كسر شوكتهم وذهاب ريحهم والله المستعان بعد ذلك على مؤامراتهم وغشهم وخداعهم .

للإعتبـــار

وأخيراً وللإعتبار . . نختم حديثنا هذا عن اليهود بمقارنات لا مفارقاتَ فيها . ومن خلال ذلك تتجلى للسامعين حقائق كبرى على المسلم الواعي الشاعر بمسئوليته نحو إسلامه ، والمطالب بتقديم شيء لنصرة دينه ، أن يتفهمها جيِّداً ، ويَحفظها ويعيشَ يفكِّرُ فيها ، ويتحرك ويعمل على ضوئها .

وهاهي ذى المقارنات مستوحاة من القرآن الكريم ، شأنُها شأنُ كل هذا الذي تقدم من

الحديث بعبره وعظاته فإنه مُسْتَقى من القرآن ومُسْتَوْحى منه ، ولذا فهو من الصدق والصحة بمكان .

١ ـ أخلاق اليهود ، إن الإنحطاط الخلقي في الأمة لا شك أنه يزيد في طول محنتها ، وصعوبة ماتلاقيه من ضعف وانهزام واليهود ساءت أخلاقهم ، وانحطت الى درجة لا نظير لها بين كثير من أمم العالم وشعوبه . فالحسد وهو أسوأ الأخلاق وَأَرْذَلُها كان الطابعَ الغالب على اليهود ، والحسود لا يسود ـ فقد حسدوا المسلمين على هداية الله تعالى لهم ، وحملهم ذلك على معاداتهم ومحاربتهم ، ثم على الكيد لهم والمكر بهم وإلى يومنا هذا قال تعالى : (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبيّن لهم الحق) . وقال تعالى : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) ؟ والاستفهام هنا للتقرير ، إذ أم هذه بمعنى بلْ ، والهمزة الاستفهامية . وإذا كان الحسد من الأمراض الاجتماعية العائقة عن النهوض والكمال ، فهل المسلمون معافون منه ، ومظاهره بارزة في كثير من جوانب حياتنا أفراداً وجماعات ؟ ألا فلْنعتبر !

وكالحسد الجبن وحب الحياة وَهُما خُلقان ذميمان من أسوأ الأخلاق وأقبحها ، فإنهما مازالا من أخلاق اليهود المتأصّلة فيهم ، ويكفي في الدلالة على هذا قوله تعالى : (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا) . وقوله (لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرىً محصنة أو من وراء جدر) . وقوله : (وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون) ـ وماذاك إلا لجبنهم قطعاً . وقال تعالى في بيان حبهم للحياة وحرصِهم عليها : (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) . وإذا كان الجبن وحب الحياة من عواملِ الهزائم ، وأسبابِ الضعف والقعود عن طلب المجد والكمال ، وقد قعدا باليهود عن ذلك قروناً طويلة ، فهل المسلمون اليوم بعيدون من ساحة هذين الخلقين المرذولين ؟ ولو لم يكونا من أخلاق كثيرين من المسلمين اليوم فكيف استطعنا أن نصبر على مدينة قدسنا تدوسها نعال يهود وعلى شعب كامل يتحكم فيه إخوان القردة والخنازير . وفي كلّ عام يحتل اليهود جانباً من بلادنا فنعجز عن قتالهم وإخراجهم ، ونطالب أمم العالم أن يخرجوهم عنا ، أليس هذا هو موقف اليهود الأولين الذين قالوا : (إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فإنا داخلون) .

٢ – **نفسيات اليهـــود** ، النفسيات المريضة التي كان عليها اليهود نفسيّةُ الإغترار ، وقد كانت هذه النفسية من أسباب ضلال اليهود وقعودهم عن طلب العز والمجد دهراً طويلا ؛ ولإثبات هذه الحقيقة نقرأ قولَ الله تعالى : (وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون) . وقولَه جلّ ذكرُه : وقالوا : (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات) . وقولَه : (نحن أبناء الله وأحباؤه) – وان شاركهم في هذا النصارى . وقولَه: (وقالوا قلوبنا غلف) يعنون أنها مَـلأى(١) بالعلوم والمعارف فهم في غير حاجة إلى مزيد مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . كلُّ خبر من هذه الأخبار الإلهية دال بصدق على هذه النفسية المنحطة في اليهود وهي الاغترار ، فجرّأتْهم على اقتراف الجرائم واجتراح السيآت ، وقعدت بهم عن العمل والإنتاج والجهاد زمناً طويلاً عاشوه مشردين في بلاد العالم يغشاهم الذل والصغار آناء الليل وكلّ النّهار . وإذا كانت هذه النفسيّة نفسية الاغترار من أسباب ضلال اليهود وقعودهم عن طلب المجد والشرف زمناً غير قصير . فهل المسلمون اليوم معافون من هذه النفسية المُضِلّة المقعدة عن طلب العز والكمال ؟ وإن أنصفنا الواقعَ قلنا : لا ، والله . وكيف ، وأغلب المسلمين اليوم يعيش على الاغترار بأن الإسلام وإن هجر كتابه ، وعُطّلت أحكامه ، ونبذت شرائعهُ ، وحورب من أبنائه ، أنه بخير ولا خوف عليه أبداً ، وأنه خالد باق . وأن المسلم مهما أجرم وأفسد ، وفسق وفجر فإنه محطٌّ رحمة الله وكرامته ، ولا يمكن أن يدخل النار أو يخلد فيها بحال من الأحوال إلى غير ذلك من الإدعاءات التي تتنافى مع القرآن في قوله : (ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجز به ، ولا يجد له من دون الله وليّاً ولا نصيراً) . وقوله : (بلى من كسَب سيئةً وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ،

ومثل نفسيّة الإغترار عند اليهود نفسيّةُ الفسق وقساوةِ القلب .

إن مما عُرف به اليهود من النفسيات الخبيثة فسقهم وقساوةُ قلوبهم وهي من أسباب محنتهم وشقائهم . فقد نَعَى القرآن ذلك عليهم وسجّله في غير آية من آيه . ومن ذلك قوله صدقت أخباره : (ولو آمن أهلُ الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) ، وقوله : (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثيرٌ منهم فاسقون) . ومن مظاهر فسقهم أكلُهُم الربا وقد نُهوا عنه . وأكلُهم أموالَ الناس بالباطل وهذا يَحصلُ لهم عادة من طريق الرشوة ، والغش في المعاملات ، والتدليس في المبيعات ، وبيع المحرمات وأكلِ ثمنها . ومن مظاهر قسوة قلوبهم : جُرْءتُهم على الكذب على الله تعالى بتحريفِ كلامه ، وتأويل أحكامه ، ونسبةِ كثير من النقائص إليه ، تعالى الله عن

(١) هذا احد وجهى تفسير للآية ,والوجه الثانى انها غلف بمعنى مغشاة باغطية فلا تعى ما يقال لهم.